

الفربة بين النقد والأشر

انسي الحاج

١

ترافق الحركات المعاصرة في الادب العربي موجة من التساؤل عن مكان النقد ومن المطالبة به في الحاح . ما من شاعر الا الملح الى غياب النقد ، وما من ناقد الا شكا وحشة الطريق ، وما من قارئ الا حمل النقد الغائب تبعة الفقر والضحالة ومسؤولية تشابك النزعات وفوضى القيم وتضعف المقاييس . نحن نعلم ان التشابك والتضعف والفوضى اعمق علة وابعد من ان ترتجل النقد كسبب لها . فما تخلف النقد وتلعثمه الا نتيجة اخرى لتزعزع الارض بالمقاييس والمفاهيم والاحكام التي درج عليها الانسان فكرا وفنا ومسلكا في زمن هو غير هذا الزمن وفي عالم انقطع بينه وبين عالمنا اكثر من سبب اساسي .

غير ان الانتباه السائد الى فراغ النقد والشعور بالحاجة اليه هما وليدا ثقة قديمة به ، وان تكن الثقة به لم تخل يوما من التردد والتخوف ، ومن الاحساس نحوه بالكراهية والاحتقار عند بعض الخلائق ، حتى لتتساءل لماذا اذا تملكأ النقد وجه اليه اللوم وحمل المسؤوليات ما دام حضوره لا يرضي احدا ؟ لكن النفور بين الخالق والناقد يبدو من طبيعة الاشياء ، ولا يبدو من الحكمة ان نتوسع في هذه الحالة الى حد الحكم « بالغاء » اي من طرفي النفور . وما نفور الخلاق من الناقد الا من وحي « حضور » الناقد ، اما غياب الناقد فانه يقذف الخالق في جحيم انعدام الصدى الواعي ، هذا الصدى الذي لا بد للعمل الفني من سماعه ، وان تردد آلاما وجراحا في احشائه .

لكنني لست في صدد الكتابة عن فضائل النقد ، لانني اعتقد ان فضائله لم يبق من مخبؤها الشيء الكثير ؛ فالى جانب ما افاض به الكتاب من نقاد وسوام ، لعل في سؤال الخلائق المتواصل وفي قلقهم من تأخر النقد وتغيبه شهادة صادقة لاهمية النقد وخطورة شأنه .

انني ابحت الآن عن بعض مساوي هذا الفن .

هناك نوعان غالبان في النقد - وانا اعترف ان هذا التصنيف مفتعل وشكلي ، لكنه تبسيطي - : واحدهما حكمي ، يقيس الاثر بقواعد ثابتة وبالنظر الى قياسات جاهزة (حتى النقد الانطباعي الذي يقول : « يعجبني ، لا يعجبني ، يُقرأ ، لا يُقرأ » ، لا يسلم من التأثير بالقواعد الثابتة والقياسات الجاهزة) . وثانيها تقييمي ، يبحث في معنى الاثر ومدلوله ، ويحاول ان يستخرج منه قيمته ، مشددا على فضائله اكثر من تشديده على نواقصه . النوع الثاني هو المسيطر اليوم ، ولعل ابرزه ما تفرع الى اضاءة الحوار بين الفنان ووجدانه - هذا الحوار الذي اتخذ شكلا له في عمل الفنان - وتخلي عن ركوب مركب اصدار الاحكام ، واقفا عند حد ما دعا اليه بندتو كروتشه ، اي القبول بالاثار ومحبته . (وربما امكن الربط ، مهما بدا ذلك تناقضيا ، بين دعوة كروتشه وصرخة فكتور هوغو بنقاد مسرحه : « ليس لكم ان تناقضوا الموضوع : السؤال هو ، هل هذا العمل جيد ام لا ؟ » ورد اندريه برتون على الذين ذهبوا يفتشون في شعر سان بول رو عما لم يقله : « ما اراد سان بول رو ان يقوله ، قاله » . ربما امكن القول ان نداء الفنان الى الناقد ، منذ بداية انهيار الكلاسيكية ونقد القواعد الثابتة ، هو ان يستقبل الاثر الفني بنية القبول والحب ، ومن ثم فليتعهمه وليعاود اختبار تجربته ، الجمالية او الاخلاقية ، وليكتشف فيه ما يميزه ، اي فليتكشف فيه جوهر حضوره ، بمحدود شهادة الاثر ذاتها واشعاعات هذه الشهادة ، لا تحت تأثير نموذج سابق او بالقياس الى مذهب براني) .

احد عيوب النقد الحكمي - وهو ما اسقطه في عين نفسه وما عجل في دهورته - انه سجل من الاخطاء وغط الحقوق اكثر مما سجل من الصواب والعدل . وقد نكب نكبة في القرن التاسع عشر حين تنكر لبلازاك (وقد حاكمه بقانون ضاقت بالزمن المتغير بنوده القاصرة) ، واستخف ببودليير (وقد رآه بعيني راسين) ، ولم يكتشف رمبو ؛ وكان فضلا عن ذلك قد اخطأ فهم الرومنطيقية لانه نظر اليها بمنظار القرن السابع عشر ، ثم تولى عهد ما بعد الرومنطيقية اخطاء الفهم حين اعرض عن الرمزية اعراض الوازن ميزان ما سبق ، ثم تولى الرمزيون القياس الخاطيء بالنسبة للسوريالية ، الخ ... ان عهد النقد الحكمي قد تولى بشكل عام ولم يعد موثوقا به ؛ لكن الى اي مدى استفاد النقد التقييمي من هزيمة سلفه ومن اخطائه ؟ وبالمعنى الذي تدور فيه هذه الكلمة ، هل تفادى النقد التقييمي المعاصر خطأ الحكم من خارج واستنادا الى قواعد ثابتة ومقاييس جاهزة ، بقليل او كثير ؟

كل اثر يتطلب تقييما ، لكن ما هو التقييم؟ الارجح انه البحث عن قيم الاثر وابرازها ، عن طريق منفتحة ، محبة ، ومنطلقة ، لاعادة اختبار لا التجارب التي يحاول الاثر ان يجسدها فحسب ، بل تجارب « تأليف » الاثر بالذات . وما هي النتيجة التي ننتظرها من ناقد القيمة ؟ ان يعدل مع المؤلف حيث لم يستطع المؤلف ، وحيث لا يستطيع كل خلاق ، ان يعدل مع نفسه : ان يسلط الضوء على ما في الاثر ، مكتشفاً فيه لا وضعه الراهن فحسب بل ، على الاخص ، امكانياته « الحاضرة » . (ارسل كاتب لبناني باللغة الفرنسية مخطوطة قصة لدار نشر فرنسية ، وكان جواب القارئ المكلف في الدار : « ارسل لنا شعرك ؛ رأينا في قصتك شاعرا يمتاز بـ ... الخ » . هذا مثل تبسيطي وتقريبي ؛ ولا يخفى ان المقيم قد يكتشف في اثر معين امكانيات ، او يبدل على حالات جزئية ، لا نوعية كما في المثل السابق . قد يكون في رواية ما لا شاعر محتبىء او ضائع ، ولا كاتب قصة قصيرة ، ولا ناقد ، بل كاتب رواية من نوع آخر ، بشكل آخر ، او امكان ، او انطلاقة حقيقية لكن غير واعية ، لرواية تختلف عما هو معروف) . وكيف يتوصل الناقد الى معرفة « الموجود المجهول » او « الموجود الاكثر اهمية » في الاثر ؟

اذا كان النقد لا يريد ان يقتصر على العرض والشرح ، فلا بد له ان « يعلق » ، ان يأخذ موقفا . والنقد التقييمي هو ايضا نقد موقف ، سميناه « داخليا » ام سميناه منفتحا ومحبا ومسلحا بكل الاستعدادات الطيبة . والنقد التقييمي مهما كره الحكم فهو حكمي ، والا ظل في حدود عرض الاثر وشرحه ، بأسلوب حل فنه التعميق محل التسطيط ، ومحاولة اعادة كرة الخلق محل التفرج من الواجهة عليه . ان اخراج القيمة بحد ذاته حكم ، لان المخرج لا يستطيع ان ينبش القيمة بالاستناد الى المطلق ولكن بالاستناد الى قيمة اخرى ، والى « اشياء » اخرى . ثم ما هو الاثر الفني ؟ انه ، في النتيجة ، جزء من تاريخ الآثار الفنية . كل اثر فني « يخضع » . كل اثر فني يدخل ضمن تاريخ الآثار الفنية (حتما يدخل ، سباقا ومغيرا - اي مضيفا - او متألفا او رجعيا ، لا فرق من حيث انتماءه الاخير) . وصلاحية الاثر لهذا الانتماء تخرجه من حيز المطلق وتجعله قابلا للمقارنة ، للمفاضلة ، للجدل ، تجعله في مهب التقييم ، تخضعه لمجموع المفاهيم المعروفة والممكنة للقياس والفهم والاختبار والتقييم . الاثر نفسه ، اذاً ، يوحى تلقائيا للناقد بان يأخذ منه موقفا ، مهما حاول الناقد ان يتخلص من التحيز ويتنفذ رافضا او متجنباً الانزلاق الى اصدار الحكم .

قد يقال : « هناك آثار تخطت عصرها » ، ويقصد القائل من هذا ان هذه الآثار ،

بالتالي ، لم تخضع ، ولم توح للنقد المعاصر لها الوقوف منها والحكم فيها .
 بديهي ان هذا اعتراض باطل ، فمجرد تجاهل النقد ، او جهله لها ، ومجرد تراجعه عنها ،
 موقف بذاته وحكم بذاته . فهو قد افادها من حيث تعمد او لم يتعمد طمسها ، وقيمها حيث لم
 يفعل . وموقفه السلبي منها (الذي « افادها » عندما لم يقبلها اسوة بما كان يقبله من آثار « لم تتخط
 عصرها » ، فيزها ، هكذا ، عنها ، حتى جاء تقدم الزمن يعيد البحث) افاده هو بدوره ،
 اذ برهن على تفهقر هذا النقد وعلى مساوئه ، مما ولد نقدا جديدا يتلافى اخطاء النقد
 المتخلف ويحاول ان يبقى حذرا حيال التجديد وحيال كل اثر يظهر ، خشية ان تتكرر
 مسألة الاجحاف بحق المبدعين الذين ربما كانوا « متخطين عصرهم » . (حتى غدا هذا الحذر
 حاجسا ، والخشية عقدة ، والهرولة كلما صدر كتاب الى المناداة على « العبقرى السابق
 لعصره » عادة مرضية لدى معظم النقاد) .

كل اثر يتطلب تقييما . كل تقييم هو حكم . كل محاولة لنقد اي اثر فني ، لتقييمه او
 للحكم عليه ، مهما تنزهت عن الاغراض وتغسلت من الآراء الجاهزة والمفاهيم السابقة ،
 هي محاولة سابقة .

من يستطيع ان يدخل في الاثر ويخرج منه ويرجع اصداؤه ، بتجرد كامل من كل شيء
 يعرفه ويريده ويستحسنه ، وبانفصال تام عن كل ما قد يعرض هذا الانفتاح على الاثر الى
 الخلل او الشرود او التعكير ، الى عرقلة اخلاصه ؟

من يستطيع ان يؤدي هذا الاخلاص للاثر ؟ اي ناقد ؟ بل اي قارئ ؟
 قد يقال : المؤلف لم ينفصل كل هذا الانفصال حين ابتدع الاثر ، فلماذا تطلب من
 الناقد ان يكون اشد اخلاصا للاثر من اخلاص المؤلف له ؟
 وقد يقال : من المستحيل بلوغ هذه الذروة في العري ، لانها ، منطقيا ، مستحيلة .

٣

هذا ما اريد ان اصل اليه .

ان كل ما بذله النقد ليتحاشى اخطاءه ويسد نواقصه لم ينجح في حمله الى حيث يريد ،
 اي الى « كل » الاخلاص . (الناقد هو « الآخر » ، ومهما اقترب الناقد من المؤلف يظل
 هذا « الآخر » بالنسبة اليه . وقد يظن شخص ما انه في وحدة مع شخص آخر تجعلهما
 شخصا واحدا لا اول فيه ولا آخر ، لكن اذ يسمع احد هذين الشخصين صوت وجدانه
 يتبين له ان في اعماقه حوارا بين اثنين ، بينه هو وبينه ايضا هو نفسه ، اي ان فيه ، هو
 ذاته ، شخصا آخر ، فيعود الآخر « الخارجى » يكتسى هيئة الغريب ، هيئة « الغريب
 الغريب » .

الخارجي ») .

النقد، من حيث هو تابع للآثر، ومن حيث الآثر منتمٍ، عاجلاً أو آجلاً، الى « تاريخ الفن »، لا يمكنه ان يخلص الا في حدود النسب . ولقد كان النقد دائم الاخلاص في حدود النسب بصرف النظر عن كيفية اخلاصه ، ولم يحل هذا الاخلاص دون وقوع النقد في الاخطاء ، ودون ارتكابه المحامات ، ودون ارتكابه الظلم ، ودون جهله ، ودون تخلفه ؛ كما لم يحل دون تأخر النقد دائماً قرناً على الاقل عن ركب الخلق الطليعي، هذا الذي يسمونه «سابق عصره» وهو على الأرجح ليس اكثر من عاكس ، حقيقي ومتطلع، لعصره بالذات .

(هناك نقاد تخطوا الآثر واشرفوا عليه بعلو او بعمق ابعد من اشراف المؤلف وعمقه . هناك نقاد خلقوا الآثر من جديد بشكل افضل . وهناك نقاد يتناولون التراب فيصبح ذهباً . هؤلاء يكلمون الآثر، او يقتبسونه، او يتخذون من انعكاساته فيهم منطلقات لخلق جديد؛ واذا كان النقد الذي يصغر امام الآثر يرتكب خطيئة التقصير، فان النقد الذي يتعملق او يتضخم ويقلع من الآثر اقلاعا يحجب الآثر ويصير فيه الآثر المنقود نقطة بداية لتأليف اثر آخر اكثر قابلية للنقد ولنقد ارفع شأنًا — هذا النقد يرتكب خطيئة الانحراف . النقد الاول مقصر في اخلاصه ، اما النقد الآخر فبالغ في خيائته للآثر) .

الاخلاص المطلق لا وجود له . اذاً ، ما الذي يعاب على النقد ؟ اليس كافياً منه اخلاصه الدرجي النسبي ؟

ثم : لا وجود للاخلاص المطلق في الخلق الفني، فكيف نسعى الى نقد مطلق الاخلاص؟ اليس في هذا ، عدا كونه مستحيلاً ، تقديم للنقد على الآثر ؟

ما قلته حتى الآن اردت ان اشير خلاله الى هذه الاستحالة بالذات لابرهن ان كل قول بنقد غير متحيز ، وكل قول بنقد «يذهب من النص» ولا يتأثر بالعوامل الخارجية والسابقة والجاهزة ، هما قولان غير حقيقيين . كل نقد مهما كان هو نقد متحيز . كل نقد هو بطبيعته غير مخلص .

لا في المطلق فحسب ، بل في النسبة . للبرهان على ذلك ينبغي ان نستعير نموذجاً فذاً (لا حاجة الى القول انني في كلامي عن « الآثر الفني » اعني الآثر الذي يفرض نفسه اولاً بهذه الصفة ، وثانياً بشكل يميزه ويقدمه عن بقية الآثار . وهذا الآثر ، رغم ندرته ، هو الذي يحدد مصير النقد) . فلنأخذ شاعراً، وليكن معاصراً، ولنفترض انه الشاعر الفرنسي المعاصر والذي مات ، انتونان ارتو . لقد ذهب ارتو في اخلاصه مذهباً كاد ان يحقق به (ولعله حقق) الانفصال عن العالم وهو في قيد الحياة ، ودخل في جسده حيث الخارق والمجهول واللامنطقي ، وعبر بلغة هي الخارق والمجهول واللامنطقي ، وراح يحاول ، بحثاً

عن جذور الاخلاص ، ان يقبض الفكرة في انبثاقها البتول ، حيث لا مكتسبات تلتطخها ولا صورة تغشيها ولا منطق يحرقها ولا مؤثرات تشوهها ، وقبل ان يقوده اخلاصه الى الجنون والتفتت كان قد حقق بآثاره كثيرا مما اراد ، كما حقق بمثاله الانساني ما لم يحققه بآثاره .

هذا مثل في الاخلاص الحي ، المتطرف حتى الفناء .

مثل آخر في الاخلاص الحي ، المتطرف حتى التورط « المضر » : الشاعر المعاصر هنري ميشو . « الاخلاص ؟ » يتساءل ميشو . « انني اكتب من اجل ان يبطل ما هو حقيقي ، حقيقياً . السجن المفضوح لا يعود سجننا » . من اجل هذا تعاطى ميشو المخدر ، والتزميم ، ومختلف ضروب « السفر الداخلي » ، ونقب في الاشياء الغريبة والقديمة والمجهولة ، وركب نفسه لغة ، ويقال عن كل كتاب من كتبه انه يحير النقاد .

لم يستطع واحد من الذين نقدوا ارتو ان يخلص له بنسبة ما اخلص هو لنفسه ، رغم اننا ما زلنا في النسيبي . لم يستطع واحد من نقاد ميشو ان يلتقطه ، ان يحاريه ، ان يخلص له بنسبة ما اخلص هو لنفسه ، لآثره . وكلما تقدمنا في عرض الاسماء عبر تاريخ الفن الحديث تكشف لنا عجز النقد ، وكلما قابلنا اثرا بالنقد الموضوع عنه تبين لنا ان الغربة بينها امر شامل ، تتقلص او تتوسع لكنها لا تنعدم اطلاقا .

هذه المسافة بين الاثر والنقد ، ليس الناقد « محترف » النقد هو المسؤول الوحيد عنها ، بل كل ناقد ، كل قارئ ، كل « آخر » . صاحب الاثر نفسه احيانا . وقد ينبري شاعر لنقد قصيدة لشاعر ثانٍ ، ويقع في مثل ما يقع فيه الناقد « المحترف » . ان الغربة بين الاثر ونقده ليست من طبيعة مذهب نقدي معين او مجموعة من النقاد ، بل هي من طبيعة كل شيء « آخر » . لذلك المؤلف نفسه قد يشعر بفواصل يبعده عن أثره ، لان الاثر يتحول بعد تجسده الى كائن مستقل .

نعم . ليس هناك اخلاص مطلق في عمل الخلق ولا في نقد الخلق . وكذلك ليس من اخلاص نسبي متكافئ . صحيح ان النقد فن ثانوي ؛ ولكنه ، فوق ذلك ، حكيميا مباشرا كان او خلال الفهم والتقييم ، ومهما بذل من حب ، وانفتاح ، وتجرد ، وموضوعية ، يظل - للآثر - غريبا ، خارجيا ، سلفا ، متحيزا ، متخلفا ، « خائنا » .

٤

يبدو انه حكم على الاثر ان يبقى في عزله وعلى النقد ان يظل « منحرفا » . وحده الاثر الذي يخرج عن نطاق الفن (كالجنون المحسد بالتعبير ، كالاغلام المكتوبة بلغة

او قوماتيكية صافية ، كالصمت « المكتوب » ، كاللوت « المكتوب » (« ينجو » من عجز النقد ، لانه ينجو من النقد . لكن هذه الآثار هل من وجود لها ؟ هل من وجود لها خارج حدود الفن ؟ كل ما جرب وكل ما صار على هذا الصعيد لم يلبث ان دخل الى حظيرة الفن ، على الرغم من اصراره انه خارجه . الدادائية ، السوربالية — يبدو انه حكم على كل محاولة متمردة فذة وصادقة وحاسمة للخروج من حظيرة الفن ، بالعودة الى الانصباب فيها ، والاقامة في متناول النقد وتحت طائلته . لكن ، لتساءل : اليس في « انحراف » النقد ، اخيرا ، خدمة للفنان المؤلف ؟ اليس في « المسافة » و « البعد » اللذين اشترت اليهما ، ما يوفر للفنان الجو المناسب لمزيد من الاخلاص في عمل الخلق ؟ اليس في عجز النقد عن اكتشاف الاثر اكتشافا كاملا والاخلاص له بنسبة اخلاص المؤلف ، ما يفسح للمؤلف في مجال المثابرة بانسجام ودونما خلل او « وعي » مؤذٍ ؟ بعبارة اخرى ، أليس في التكافؤ بين اخلاص الناقد واخلاص المؤلف ، وبين تجربة الاول وتجربة الثاني ، وبين عطاء الاول واستعداد الثاني لتقبل العطاء واعادة اختباره ، ما يتلف المؤلف ؟

يقول ريكه ان « من اقصى امتحانات المبدع انه ينبغي له البقاء في جهل من افضل مواهبه ، ان لا يشعر بها مجرد الشعور ، والا تعرض الى افقارها صفاءها ، وعذريتها . والنقد ، ما هو عمله ؟ انه ، حتى في حدود انحرافه وتخلفه ، ما يزال يمارس ، بقليل او كثير ، ايقاظ المبدع على مفاتيحه . فهل نطلب منه ان يمضي في ممارسته هذه اشواط اخرى ؟ حقا ، كل هذا عبث . لا يمكن ان نلغي النقد ، لكن من حقنا ان نتساءل لم النقد « هكذا » من حقنا ان نقف من النقد موقفه ، فنكون بالنسبة اليه غرباء ، خارجيين ، مُسبِّقين ، متخلفين ، و « خونة » .

كما لا بد ان يكون هناك بالنسبة اليه شيء تابع له ، ناجم عنه ، « ثانوي » .